الخاتم

(فصل من رواية « حكاية بحار »)

« خلال عملي في البحر ، على احدى سفن الشحن، تعرفت الى معظم مرافيء العالم . كانت السفينة من عابرات المحيطات ، تتسع لحمولة كبيرة جدا ، وتضطر الى الرسو أسبوعا او اسبوعين ، ريثما يتم التفريغ والتحميل .

وكانت الايام التي نقضيها على البر ممتعة . فالبحار يمكث طويلا على ظهر السفينة المبحرة ، لا يرى غير السماء والماء ، ولا يفعل سوى العمل والاكل ، محروما من رؤية اليابسة ، محروما من المرأة والاولاد ، غير قادر على السير الا مسافة قصيرة محدودة ، هي طول الباخرة وعرضها ، يسهر الليالي والنهارات حول الدفة ، او يعمل في تنظيف السطح وطلاء بعض الاماكن التي تآكلت بفعل الملح والرطوبة ، ويضطر الى رؤية الوجوه نفسها ، وسماع الاحاديث نفسها ، وتكرار المشاهد والصور ، ومعاناة شدائد البحر في الانواء والعواصف .

البحار ، في هذه الحال ، يتشهى اليابسة تصير الارض عشقه ، تصبح المرأة حلمه ، يتمنى ان يمشي في الاسواق ، ويمشي محملقا في كل شيء كأنه يراه للمرة الاولى ، مندهشا كأنما الابنية والحوانيت والسيارات جديدة عليه ، وكأنه يكتشف الوجوه الانسانية بنظرة جديدة ، ويشاهد القطط والكلاب والحيوانات بعد دهر من غيبتها عنه .

وحين تطول فرقة البحار لهذه الاشياء الاليفة ، يشعر كأنه فصل عن العالم والناس . هجر من قبل الكائنات جميعا . نفي عن اليابسة الى اعماق المحيطات، فهو يقضي حكما بالسجن على ظهر سفينة دون ذنب ارتكبه . وتتفاعل في ذاته مشاعر الضيق والعذاب والتمرد ويتطلع من فوق حواجز الباخرة ونوافذ قمراتها الى ما وراء المدى المائي بحنين لا يوصف ، وتتولاه نوبات من السوداوية لا يبددها او لا ينساها الا في شيئين : القمار والخمرة . يصبح شرسا ، مشاكسا ، عنيدا ، مغامرا ، ويزداد كل ذلك في حالة الخسارة في القمار ، او حالة السكر ، فيعمد الى العراك ، والى الكفر . وقذف أفظع الشتائم ، فيأمر القبطان عندئذ بسكب الماء عليه حتى يفيق ، ويجره عاريا ، ممزق الثياب ، على السطح او بين العنابر . فاذا ألحق اذى باحد البحارة حبسه ، واذا هدد او توعد القبطان أمر بضربه ، حتى تتلاشى قواه ، ويخضع فيهدأ . أو يقاسي السجن فوق النفي فيعود الى رشده. والى عمله ، والى المقامرة والسكر .

وكثيرا ما يقع البحار مريضا . في هذه الحال يقبع في قمرته ، او في مستوصف الباخرة ، ويكون عليه ان يلتزم بأوامر الطبيب ، وان يخضع للمعالجة ، وحتى لحالات من الجراحة الاولية ، فاذا اشتد المرض عليه انزل في أول مرفأ ، وارسل الى احد المشافي حتى يبرأ فيلتحق بالباخرة من جديد ، في أحد المرافيء التي يلفتها. واذا مات على ظهر الباخرة ، بحادث ما ، او موتا فجائيا، او من مرض أو وباء فتاك ،وضعت جثته في كيس مثقل بالحديد ، وسجي على لوح من خشب ، وصلى عليه كاهن الباخرة او قبطانها قائلا : « من التراب خلقنا والى التراب نعود » ، وبعد ذلك يقوم البحارة بالقائه في البحر ، حيث تنفتح هوة في الماء ، ويتطاير الرذاذ ويرغي الزبد ، ثم يعود كل شيء الى حاله ، ويهوي الجثمان الى القاع ، ليكون فريسة للاسماك والوحوش البحرية ، بينما تتابع الباخرة سيرها ، ويتفرق البحارة وقد ران عليهم حزن بالغ لمشهد الموت ، ولفراق زميل ، ولالقائه في البحرعلى هذه الصورة البائسة ، كأنما هو حجر او صندوق قمامة، دون مأتم ، دون اجراس ، دون دموع ، ودون وداع من حبيبة او اهل .

ثم لا يلبث البحارة ان ينسوا . حياتهم قاسية تضطرهم الى النسيان ، والى التماس العزاء في السكر والمقامرة ، مستأنفين حياتهم العادية ، الرتيبة ، التي لا يلونها سوى العراك ، وسوى المخاطر ، والاحداث المفاجئة.

من اجل هذا ، فانهم يصابون بسعار حين تطول رحلتهم . يكثر السكارى بينهم ، ويكثر المقامرون ، وتزداد المشاجرات الدامية ، وينفد صبرهم حتى يصبحوا ، قبل الوصول الى احد المرافيء ، بحالة توتر يبلغ درجة الهيجان ، فيذهبوا الى القبطان لاخذ ودائعهم ، لاستعادة ما خبأوه لديه ، لقبض كل ما تجمع لهم من اجر ، ويكون

النازلون الى البر سعداء ، يتسابقون الى الخمارات والمباغي ، فالخمرة والمرأة اشهى الاشياء لديهم ، وبعد أن يرتووا من كليهما ، ويسدوا جوع الجسد ، وترتخي أعصابهم المتوترة ، ينطلقون الى الاسواق ، محاولين شراء بعض التذكارات اذا ما تبقت لديهم نقود ، اوالفرجة على الاسواق والناس ، في فضول كفضول الاطفال .

غير أن للمرافيء قوانينها واعرافها . ان احدا لا يستطيع أن يبدل ويغير في قوانين المرافيء . حتى ولا الحكام انفسهم ، هنا غابات بغير اشجار ، ووحوش تمشي على رجلين . وقتلة ومهربون وسفلة . مجرمون عتاة ، عصابات رهيبة ، مواخير ملأى بالزهري والسفلس وكل أنواع الامراض ، تفوح منها روائح المحاليل والمطهرات والادوية الغريبة . وفي المرافيء ايضا أزقة ودروب وكهوف وبؤر ، وفيها سكارى وبلطجية ، وقوادون ، والموت يترصد البحار ، وكذلك المرض ، فاذا نجا منهما لم ينج من السرقة ، ومن الضرب ، والخطف . انه باختصار ، يجد عالمه ، يجد نفسه ، وعليه ، في هذا الطين ، في هذا المستنقع ، في هذا الماء النتن الراكد ، ان يمزق ويسبح ويعوم ، وكل مايطلبه منه القبطان ان يعود سالما الى الباخرة ، وان يعود في موعده ، لان عليه ان يتسلم عمله كي ينزل الاخرون الى المرفأ ، وعليه الا يرتكب حماقة ويقبض عليه لاجلها ، الا تضبط معه مخدرات او مهربات ، والا فانه يكون قد خالف الانظمة وخرق اللوائح ، والسجن عقابه ، والقبطان لا يستطيع ان يفعل شيئا في هذه الحال ، سوى الحكم بالنذالة والجبن على بحاره .

في مرفأ مدينة ج.. ــ وهو مرفأ مشهور بالمخدرات والمواخير والجرائم ــ توقفت باخرتنا لمدة اسبوع . كان ذلك في الشرق الاقصى ، وفي بلد اسيوي نال استقلاله وغير نظامه منذ عشرين عاما أو اقل ، وتبعا لذلك تغيرت صورته . فلا مخدرات ولا قوادون ولا نساء ولا مهربات ولا قمار ، قوانين اشتراكية صارمة ، كان يكرهها قبطاننا ، وكنا نضيق بها نحن ، ونتمنى ان نغادر المرفأ بأسرع ما يمكن بسببها ، لكن الجميع بمن فيهم القبطان ، كانوا مضطرين ، اذا ارادوا تجنب السجن وحجز الباخرة ، الى مراعاة الانظمة ، فهم مخيرون بين البقاء على ظهر الباخرة ، او النزول بشروط كهذه ، حيث يجدون امامهم « نادي البحارة » وحده ، والاسواق المحيطة به ، دون ان يتجاوزوها ، فهم يسكرون ، ويعربدون داخل النادي . من غير ان يجدوا خمارة او مقمرة او مبغى ، ودون مجون او رقص او خلاعة ، وبغير ان تلامس اكفهم جسد امرأة من أي عمر ، او تلاقي اشياؤهم المهربة من يشتريها أو يقايض عليها .

ماذا يبقى للبحار اذن ؟ انه طبعا لا يذهب الى الكنيسة حتى ولو وجدت . ولا يسره ان يزور المعامل حتى لو سمح له بذلك ، ولا ان يتنزه على شاطىء البحر . بعد ان اشتاق طويلا الى اليابسة ودنياها التي تعوضه عن محدودية عالم الماء . هذا المرفأ لا مرفأ كنا نقول فيما بيننا ، انه دير ، قلعة ، سجن آخر على البر ، ولا حاجة للبحار الى كل هذه المرافق التي تبعث على الزهد . لذلك كان كثير من البحارة يفضلون البقاء في الباخرة ، او ينزلون لفترات قصيرة ، او يذهبون لشرب البيرة المثلجة في نادي البحارة ، والطواف قليلا في الاسواق المجاورة ، وهي ملأى بالاشياء الغريبة ، وكلها تذكارات نادرة من عالم الشرق الاقصى .

ولانني كنت مغرما بجمع الاصداف منذ صباي ، وباقتناء التذكارات التي نلتقطها من المرافيء ، فقد نمت في نفسي هواية جمع التحف . وكان مرفأ «ج» ، في كل مرة نرسو فيه ، المكان الافضل للعثور على بعض من هذه الاشياء ، في الدكاكين المليئة بالخزف ، والخشب المحفور واللوحات الطويلة ، المتدلية على الجدران ، والتماثيل العاجية والخزفية والبرونزية ، وكلها عتيق ، من مئات الاعوام ، يبيعها شيوخ مسنون ، مبطنو العيون ، ذوو لحى تصل الى نصف متر ، قليلة الشعر ، بيضاء ، تهبط من عثانينهم الى صدورهم ، وتنتهي بذيول رفيعة ، وهم لا يفتأون يمسدونها بأكفهم . ويسرحونها تسريحا بالاصابع ويدعونها متناثرة الشعور ، تستريح على اوساطهم أو فوق الطاولات التي يجلسون وراءها .

لقد فتنتني هذه الدكاكين . ان لها عمقا بعيدا ، يجتمع فيه هؤلاء الشيوخ ، فيقيمون تحفهم قبل عرضها ويلصقون على كل منها سعرها ، ويعرضونها عرضا مغريا ، او يصلحونها في الداخل ، وقد يكسرون ، متعمدين ، طرفا منها ، او يحدثون فيها خدوشا ، ويلقون عليها الغبار ، او يعالجونها بما لا ادري حتى تبدو قديمة جدا فتستهوي الشارين وتغري جامعي التحف .

كنت أسرع ، ما ان تلقي الباخرة مرساتها في هذا المرفأ ، الى النزول اذا لم تكن لدي نوبة حراسة او عمل ما في الباخرة . وكانت الميناء تقع على مصب احد الانهر الكبيرة ، وبعض السفن الصغيرة تدخل هذه « الدلتا » وتقترب من الارصفة ، وهناك ترسو بين مئات المراكب والقوارب ، فاذا سرت مع المصب ، خارج حرم المرفأ ، وجدت عددا كبيرا جدا من القوارب الصغيرة ، التي يتخذها السكان بيوتا لهم ، عائمة فوق الماء ، يقضون فيها الشتاء والصيف ، ويجمعون ، في قاع القوارب ، كلابهم وقططهم ودوابهم ، ويعيشون هم واطفالهم بينها ، ويمارسون حرفهم اليدوية ، واعراسهم ومآتمهم ، ويحيون حياة كاملة على هذا النحو العجيب ، فاذا اراد أحدهم ان يزور الاخر ، فما عليه الا ان يجذف ، او يحرك دفة طولانية في ذيل القارب ، فيندفع به الى حيث يريد ، وهكذا تتم الزيارات . ويتبادل سكان القوارب ما

يحتاجون اليه ، ويشتري او يبيع احدهم الاخر ، ويؤدون فروضهم الدينية ، ويعشقون ، ولا يصعدون الى البر الا لعمل أو قضاء شأن من الشؤون الضرورية .

لكم تمنيت النزول الى احد هذه القوارب، أزور عائلة من سكانها ، أو اتفرج على مصنوعاتهم الحرفية، أو أراقبهم خلال العمل . لكن ذلك كان ممنوعا ، وكان الحذر من الاجنبي شديدا ، فهو مرفوض ، لا يخالطه أو يكلمه احد ، اذا لم يكن هناك سبب واضح ، يتعلق بشراء سلعة ما مثلا . وكانت تعليمات قبطان الباخرة صريحة ومشددة بهذا الخصوص ، فالخطر كبير اذا ما تحرش الاجنبي بامرأة ، حتى ولو في حالة السكر ، او تشاجر مع مواطن ، أو اهانه بشكل ما . كانت السلطة، في ذلك البلد ، تريد ان يستعيد مواطنوها كرامتهم التي هدرت ايام الاحتلال الاجنبي ، وقد حدثت مغالاة في ذلك ، فاعتبر كل اجنبي عدوا ، وكل مساس منه بحرمة او كرامة احد المواطنين ، ولو بغير قصد ، جرما يعاقب عليه ، وقد روى لنا قبطان الباخرة ، وكان سويديا ، أن احد الديبلوماسيين السويديين في ذلك البلد تحرش بمواطنة تعمل في السفارة ، فحكم عليه بالسجن ثلاثة عشر عاما .

من أجل ذلك كان البحارة الاجانب يخافون النزول الى المرفأ ، فاذا نزلوا لم يتعدوا « نادي البحارة » ومن تجرأ منهم خرج قليلا الى الاسواق المجاورة فطاف بها ، ويتواصى البحارة بعدم السكر ، فاذا اكثر احدهم من الخمرة نصحوه بالعودة الى الباخرة ، وقد يرغمونه بالقوة ، او يبقونه في النادي حتى يصحو ، ويبلغون القبطان فلا يسمح له بالنزول مرة اخرى الى هذا المرفأ.

أنا كنت مغرما بالتحف كما قلت ، كان الطواف على دكاكين « الانتيكات » يوميا ، شغلي الشاغل ، وكي أتجنب أي سوء تفاهم ، او اشكال ، واتفادى التورط مع السكان ، كنت امتنع عن الشرب قبل النزول من الباخرة، ولا ادخل «نادي البحارة » الا بعد العودة من الاسواق، وكان فرحي كبيرا كلما عثرت على تحفة فاشتريتها ، وكنت أخفي تحفي في صندوق اغراضي في الباخرة فلا أطلع عليها احدا ، خوف ان يسرقوها ، او يعبثوا بها فيحطموها ، او يقتفوا اثري في الاسواق فيفسدوا علي متعتي ، أو يضايقوني في دكاكين التحف فلا استطيع تملي المعروضات بهدوء ، وانتقاء الاشياء الجميلة النادرة، ذات الوزن الخفيف والسعر المناسب .

وقد قص علينا قبطان الباخرة ليلة ، ان السفير السويدي في هذا البلد كان مغرما بشراء التحف ايضا ، كان خبيرا بها ، ويشترك في مجلات انكليزية وايطالية متخصصة ، تبحث في « الانتيكات » ، ومجموعاتها ، واسعارها ، وتفرد بابا خاصا لتحف الشرق الاقصى، وتنشر صورا عنها ، وتعطي تقديرات عن المتاحف الموجودة فيها ، وعن القطع الناقصة منها ، وخاصة التماثيل البوذية ، وزجاجات السعوط والساعات القديمة ، والاحجار الكريمة وغير ذلك .

وقال القبطان ان السفير السويدي رأى في احد هذه المخازن قطعة خزفية نادرة ، ولما عاينها وجد ان سعرها اكثر مما يحمل من نقود ، فتركها على ان يعود فيشتريها في اليوم التالي . ولما رجع الى السفارة وفض البريد ، وجد صورة القطعة الخزفية في احدى المجلات الجديدة . وقرأ ان هذه القطعة تنقص المجموعة الخزفية لا ادري في اي متحف ، فاهتم لذلك اهتماما كبيرا ، وكالمدمن المحروم ، لم يعرف كيف ينقضي الليل ، وما ان صار الضحى في اليوم التالي حتى ركب سيارته وهرع الى المخزن ، ودخل فورا الى الجناح الذي رأى القطعة فيه ، ولشدة دهشته اصيب بارتعاشة عصبية: كانت القطعة غير موجودة في مكانها ، فاما انها بيعت، او نقلت الى مكان آخر ، ولما سأل احد الشيوخ ذوي اللحى من خبراء « الانتيكات » الذين يعملون في المخزن، قام هذا بفتح احد الادراج ، واخرج بهدوء نسخة من المجلة ، قلب اوراقها ، واشار الى صورة القطعةالخزفية وابتسم .. لقد كانوا اسبق منه في اكتشاف ندرتها، وقيمتها ، والطلب عليها ، لذلك صارت من الممنوعات ، واعيدت الى متحف الدولة للحفظ فيه .

هذه القصة كان لها اثر كبير في نفسي . لم اقل شيئا . لم اخبر القبطان او البحارة اني صرت من هواة التحف ، ومن المدمنين على البحث عنها ، وانني انزل هذا المرفأ لغاية وحيدة هي التجوال في الاسواق ، والوقوف ساعات في مخازن « الانتيكات » للعثور على تحفة وشرائها . كتمت سري ، وصرت ، منذ ذلك اليوم، أعيش حالة الانفعال التي يعيشها العشاق او الهواة ، ولا أصدق اننا وصلنا الى مرفأ « ج » حتى اجمع ما لدي من نقود ، واسبق الاخرين فيالنزول ، ثم اقوم بتبديل نقودي ، واذهب فورا الى تلك المخازن ، فأمكث ساعات في تأمل التحف ومعاينتها ، ومعرفة قدمها،وقد ابتعت قاموسا لحفظ بعض الكلمات الضرورية من لغة البلد ، واصبحت مهووسا بهذه الهواية ، وكثيرا ما انتظرت حتى ينام الاخرون ، او يكون زميلي في القمرة قائما بنوبة حراسة ، فأعمد الى صندوقي افتحه ، واستخرج تحفي باحتراز شديد ، واروح مفتونا ، واحلم ببيت أجمعها فيه ، أو بفرصة يتاح لي خلالها ان ابيع تحفي بثمن جيد .

صدقوني ان حبي للتحف بلغ درجة العشق . كنت استرجع ، وانا في نوبة الحراسة ، او وراء الدفة ، صور التحف التي رأيتها في تلك المخازن ، واشكالها ، وألوانها، وحجومها ، وأفكر كيف احصل عليها ، واين احفظها ، ومتى اوصلها الى وطني وبيتي ، وتعلمت طرق توضيب

الاشياء الخزفية او الزجاجية حتى احميها من الكسر ، وابتعت لذلك ورقا مقوى ، وقطنا ، وخيوطا ، وصندوقا اضافيا ، وفكرت بان ادفع اجرا في « نادي البحارة » لمن يترجم لي ما هو مكتوب على التحف ، وان اكتب الى ايطاليا وفرنسا وبريطانيا استحضر تلك المجلات المتخصصة فاذا لم استطع قراءتها استعنت ببعض البحارة ، او اكتفيت برؤية الصور التي فيها . المهم انني صرت في حالة نفسية قابلة للاشتعال كلما تذكرت التحف ، وكلما دار الحديث حولها امامي ، أو قرأت عنها عبرا في أية صحيفة . وبلغ من شدة هذا الوضع النفسي انه سيطر علي ، وصيرني مسلوب الارادة ، فاقد المقاومة ، امام أي خاطر يعرض لي ، سعيا وراء امتلاك تحفة ما ، حتى بلغ من شأنه انه عرضني للخطر في الحادث الذي ارويه.

في احدى المرات التي توقفت فيها الباخرة في مرفأ «ج» ، صادف توقفها عيد السنة القمرية ، كانوا يحتفلون بهذا العيد احتفالا رسميا وشعبيا ، فتعطل الدوائر الرسمية ، وتتجمد الحركة في المرفأ ، وتغلق الاسواق والمخازن والحوانيت ، ولا يستأنفون العمل الا في صبيحة اليوم الرابع للعيد .

هذه المصادفة ازعجتني ، طال مكوث الباخرة في المرفأ ، دون ان استطيع ، خلال ايام ثلاثة ، ان أمارس هوايتي في زيارة مخازن التحف ، والبحث بينها عن تحفة اضمها الى مجموعتي . لم احتمل البقاء في الباخرة ، ولا قضاء الوقت في النادي ، وصرت قلقا ، متوفزا . عجزت الخمرة ان تعيدني الى حالة الاسترخاء ، وعجزت عن التلهي كزملائي ، فكنت اطوف في الاسواق المغلقة ، واعود الى النادي لاستأنف الشرب،واتفرج على المعروضات من الصناعات الحرفية الجديدة ، التي يشتريها البحارة كتذكارات ، فأجدها تافهة ، عديمة الاثر في نفسي ، وأشفق على من يشتريها ، معتبرا اياه ساذجا .

كنت أدع البحارة في النادي ، يتناولون البيرة المثلجة ، يلاقون بحارة البواخر الاخرى ، يصخبون على انغام الموسيقى ، ويشتم كل منهم بلغته ، وانطلق أطوف متمهلا في الاسواق المغلقة ، استعرض الناس في العيد ، أقف متفرسا في تجمعاتهم ، اقترب من عربات تحمل بعض الاطعمة ، اتابع الاطفال وهم يجرون اويلعبون في الشارع ، أراقب حركات المارة ، أتلبث عند تقاطع الطرق ، أشاهد المخازن والحوانيت وهي مغلقة ، افعل أي شيء يقتل الوقت ، وارجع الى النادي فاشرب ، فلا تلبث ان تنازعني نفسي الى تحفي ، فاهرع الى الباخرة، وانكب على صندوقي نبشا ، فاخرجها واتملاها واعيد توضيبها وترتيبها .

ثالث أيام العيد افقت باكرا. كان دوري في الحراسة بعد الظهر ، وكانت رغبة مبهمة تنازعني الى النزول من الباخرة ، والذهاب الى النادي ، ثم التسكع في الاسواق الى ان يحين الظهر .. صعدت الى ظهر الباخرة ، وسرني ان منظرا عريضا للبحر والمرفأ والابنية وكل المنطقة المجاورة انفتح امامي ، فتلهيت برؤية السفن والمراكب والقوارب ، وبحركة الزوارق بينها ، وقضيت وقتي نافذ الصبر بانتظار ان يحين موعد الافطار فأتناوله ، واهبط سلم الباخرة الى المرفأ .

لقد حرصت ، اليوم ايضا ، أن اكون وحيدا . لا اريد لاحد ان يطلع على ما أعمل ، أو يعرف اين اذهب واية مخازن أدخل . كنت اريد الاشياء لي وحدي . مجرد التفكير بان البحارة سيكتشفون مخازن «الانتيكات» كان يرعبني . ما كنت أطيق المنافسة في هذا المجال ، واضحت التحف كالنساء ، فانا اريدها حكرا علي ، لا ينازعني فيها منازع ، واغار عليها من المس واللمس والاستلاب ، واجهد كي يبقى مصدرها مجهولا ، وان يظل هذا الكنز المرصود الذي فتح على وجهي ، بعيدا عن مظان الاخرين ، حتى في حالة الاغلاق ، وفي ايام العيد هذه ، وبرغم العطلة التي شملت الاسواق جميعا ، مما جعلني على يقين انها لن تفتح الا بعد انقضائها .

في النادي طلبت كأسا من الكونياك . كان الوقت باكرا بعد لشرب البيرة ، ولم يكن ثمة بحارة غيري ، وكان الساقي يعرف الانكليزية ، فتبادلت معه بعض الكلمات ، ونهضت فتجولت في البهو ، حيث تقوم اكشاك صغيرة لبيع التذكارات من المصنوعات اليدوية ، وفي حوالي الساعة العاشرة غادرت النادي ، امشي ببطء مبتدئا جولتي اليومية ، دون امل في لقاء شيء، او في وقوع مصادفة غريبة ، او العثور على أي حانوت مفتوح .

كان الطقس ربيعيا ، ولذعة برد تسري في الاوصال تهيأت لها بكأس الكونياك . وكانت الطرقات مزدحمة ، وهناك تجمعات للناس ، وزينات في بعض النقاط ، والاسواق مغلقة ، وليس الا عربات او بسطات بيع الاطعمة ، وسيارات قليلة تمر ، وكذلك عربات صغيرة يجرها من امام راكبو دراجات ، قيل انها كانت تجر ، فيما مضى ، من قبل الرجال ، ثم ابطل ذلك احتراما للانسان ، ولم يبطل استعمال العربات بسبب أزمة النقل، ولان العربات بذاتها تشكل علامة فارقة من علامات بلدان الشرق الاقصى .

فجأة ، فيما انا أسير ، رأيت طرف الباب الخشبي لاحد المخازن مشقوقا ، كنت أعرف هذا المخزن ، وقد دخلته كثيرا ، وابتعت منه مسابح بوذية ، حباتها تبلغ المئة ، من خشب عنابي جميل ، تزداد مع الاستعمال لمعانا ، وتصلح ان تصير عقودا للنساء ، ومسابح بثلاث وثلاثين حبة للرجال ، كما تصلح للزينة في الغرف ، وكنت أنوي ان اشتري عقدا اخر ، اضمه الى مجموعتي.

اقتربت من الباب المشقوق مدفوعا بلهفة داخلية. فعلت ذلك خلال لحظات ، توقف فيها تفكيري ، وانشلت ارادتي ، واعترتني رجفة صيرتني أسيرا لتلك الرغبة النفسية في ان ادخل المخزن ، وارى تحفه ، ولا اعود خائبا كما عدت بالامس وقبله .

لم افتح الباب . تصرفت بآلية كاملة ، وتركت ليدي التي تدرك ، بحكم الواقع ، ان المخزن مغلق ولا يجوز فتحه ، ان تشق الضلفة قليلا ، بحيث دسست جسمي في الفتحة ودخلت ، ثم اغلقت الباب ورائي اغلاقا كاملا .

كانت الواجهة الخشبية للباب عريضة ، وانما دخلت من ضلفة وسطى فيها ، وكان المخزن عريضا ، واسعا ، عميقا جدا . وعلى جوانبه رفوف حتى السقف، ملأى بالتحف ، وفي وسطه طاولات خشبية مزدحمة بالمعروضات ايضا ، وعلى الارض ، عند اقدام الجدران، تحف كثيرة ، وهناك حاجز من لفائف اللوحات يفصل الفسحة الامامية للمخزن ، وقد تركت مساحة صغيرة تؤدي الى الداخل ، الى اعماق المخزن ، المليء بالخزف، في احجام وانواع مختلفة ، وبالخشب المحفور القديم، وبالتماثيل ، للبشر والحيوانات ، وبالبرافانات ، والفازات الكبيرة ، المزدانة بالرسوم والنقوش، والقدور البرونزية، التي كان يسخن فيها النبيذ ، وباصناف من الاشياء العجيبة الغريبة التي لا يمل الانسان من النظر اليها ، والتمعن في الاشكال الخزفية التي تتخذها ، والحركات الفنية التي تمثلها ، والاوضاع التي رسمت بها الشخوص والاساطير المنقوشة عليها .

لم اجد أحدا في المخزن . صرت في الداخل ، وقد اغلقت الباب تماما ورائي ، دون ان ألقى انسانا ، حتى خيل الي أنني ولجت كهفا مرصودا ، أو مغارة مسحورة، وانني في الحلم ، وبين يدي ، وفي متناولها ، أشياء كثيرة تكفي حمولة باخرة صغيرة ، وليس علي الا ان أجمع منها ما اريد ، فأفوز بغنيمة العمر .

وقفت مشدوها . كانت المفاجأة التي صنعتها لنفسي ، او صنعتها الاقدار لي ، فوق قدرتي على الاستيعاب . وكان المخزن ، ذو الارضية الاسمنتية ، باردا من الداخل ، وقد استشعرت برودته مضاعفة ، بسبب من الخوف الذي اعتراني ، والوحدة ، والدهشة، وكل هذا الجو الغريب الذي لا اعرف كيف اتصرف فيه، وماذا اعمل لاتحمل رهبته ، وما هو السبيل الافضل للخروج منه سالما ، بغير تحف وبغير شيء ، ناجيا بروحي من هذه الورطة الرهيبة .

الخوف يفجر الهواجس . الوساوس تتضخم . يتوالد بعضها من بعض ، وفي تلك اللحظات الحرجة، انفتحت شهية ذاكرتي ، فاستعدت كل ما سمعته عن قوانين هذا البلد ، ورنت كلمات القبطان في اذني ، وادركت انني ارتكبت حماقة في الدخول الى مخزن مغلق. لا يحق لابناء البلد ان يلجوه عنوة ، كما فعلت انا ، فكيف باجنبي ، اذا ضبط اتهم بالسرقة او بما هو اخطر ، والقي به في سجون مرعبة ، بين اناس لايعرف لغتهم ، وليس له بينهم شفيع .

ماذا افعل يا رب ؟ تلفت حوالي مذعورا ، أحدق في التماثيل الضخمة المحيطة بي ، فتهيأ لي انها تكثر في وجهي ، وانها موشكة ان تطلق زئيرا او صراخا يجمع علي المارة في السوق ، وان بعضها يضحك ساخرا ، وان عيون التماثيل البوذية تدور بسرعة خاطفة ، وايديها تتحرك للقبض علي . وان اجراسا سرية لن تلبث ان تقرع ، منبهة الى وجود لص في المخزن .

تراجعت الى الوراء . استدرت للخروج . داهمني شعور بان الناس ينتظرونني في الخارج ، فما ان افتح الباب واظهر فيه حتى يهجموا علي ، ويمسكوا بي وسط ضجة من اصواتهم التي تخرج من الانوف ، وسيجرونني في الشوارع وهم يقودونني الى اقرب مخفر .

بلبلني الخوف . شل قدرتي على التفكير . تسمرت في مكاني . صرت غير قادر على الحركة . وفجأة طقطق خشب الباب ، فظننت انهم اتوا للقبض علي ، وبغريزة المقاومة اندفعت الى امام ، محاولا الاختباء وراء التماثيل، او بلوغ ما وراء حاجز اللوحات ، باحثا عن عصا او خشبة او أيما شيء ادافع به عن نفسي . وحين صرت قرب الفراغ الموصل بين المكان الذي دخلته ، وما وراء الحاجز من المخزن ، في ذلك الامتداد المجهول ، العميق ، الشبيه بالقبو ، وسط ركام من « الانتيكات » ، باغتني مشهد هزني هزا . كانت ثمة طاولة ، وعلى الجدار مرآة ، امامها امرأة تسرح شعرها ، وقد فردته وارخته طويلا على ظهرها ، فهو اشبه بستارة تخفي رأسها وكتفيها وجذعها حتى وسطها ، يتهدل ويتماوج ، ويستسلم مسترخيا تحت المشط كخيوط حريرية ناعمة سوداء ، ومن ذراعها العارية ، وقفا كفها القابضة على المشط ، عرفت انها صبية ، وان وجودي معها ، على هذه الصورة المريبة، كاف وحده لادانتي ، فاذا صرخت ، او ندت عنها اية حركة استغاثة ، او قاومت على اي نحو ، اطبق علي الفخ الذي وقعت فيه ، ولم يبق امامي سوى الهرب ، او العراك ، وربما كان قتلها هو الخيار الوحيد الباقي ، ثم اختبيء الى الليل ، فانسل من المخزن بطريقة من الطرق.

يقولون ان دماغ الانسان يعمل بأقصى سرعته وقت الخطر . انني اصدق هذا الكلام تماما ، فقد عشته بنفسي . دماغي ، بعد حالة الشلل الذي اعترته من الخوف ، نشط فجأة . راح يستجيب لرغبتي في التفكير ، عسى أن اهتدي الى مخرج . ومع ان قلبي كان يدق بعنف ، الا ان الشلل زايلني ، فتوفزت لعمل

ما ، وطفقت عيناي تبحثان عن وسيلة ما ، حتى وقعتا على سكين ملقى على طاولة في القسم الداخلي من المخزن.

بهدوء ، هدوء شديد ، وسط سكون بالغ ، سمعت معه دقات قلبي ، خطوت محاذرا الاصطدام بما امامي او حولي ، ولما صارت السكين في يدي غمرتني فرحة وحشية . الان استطيع تهديد الفتاة ومنعها من الصراخ، واذا اتت باية حركة لفضحي قتلتها . صار القتل مخرج خلاص بحكم الضرورة . انني أكره القتل ، اكره اراقة الدم ، لكن الدفاع عن النفس ، او انقاذها من ورطة كهذه ، يسوغ تصرفي . صرت محكوما بذلك ، مسكونا برغبة مستميتة في الخلاص ، ولم يعد التراجع واردا في حسابي .

ومن موقفي قرب الحاجز الفاصل بين قسمي المخزن، رحت اتابع حركة يد الفتاة وهي تمشط الشعر، وتفرقه ، وتسويه ، كاشفة عن ساعد جميل ، بض ، لا أثر للشعر او أية شائبة عليه . وقد استطعت ، وانا أتفرس في ظهر الفتاة ، أن اقدر انها جميلة . كانت ذات جسم متسق ، فارع ، وخصر ضامر ، يعطي بنيانها انسجاما في الطول ، ويرسم تجويفة في الوسط ، تبرز استقامة الظهر ، وامتلاءه ، واستدارة الردفين اللذين يتوجان ساقين عامرتين بالفتنة . وهذا ما أغراني ، رغم الخوف ، أن امكث في مكاني ، اراقب حركاتها ، متمعنا بمشهد ساحر، انا المحروم من المرأة طيلة الرحلة البحرية، والذي تساءل عن الجنس في هذا المرفأ ، وتشهاه ، وتمنى مغامرة ما ، مع اية امرأة ، ولو للحظات عابرة .

وزاد في اغرائي انها كانت عارية الذراعين من عند الابطين . انني اروي ما جرى معي ، واعتذر اذا تكلمت بصراحة . فالذراعان العاريتان ، في مثل ذلك الوضع، وتلك الحاجة النفسية المهتاجة ، اثارتاني ، المرء يرى ، على البحر ، كثيرا من النساء ، كثيرا من الاجسام ، فلا ينفعل الا قليلا . وقد لا ينفعل ابدا اذا كان يسبح. لذلك قيل ان اجمل امرأة على الشاطىء هي التي ترتدي ثيابها، اما في ذلك المخزن ، في تلك العتمة الداخلية ، والوحدة تلفنا ، وانا مقدم على مغامرة مجنونة ، فقد بدا الذراعان البيضاوان مثيرين الى ابعد حد ، واشبه بذراعي تمثال من رخام او عاج ، حتى خيل الي ان هذه المرأة الغريبة، في هذا المخزن المليء بالسحر ، قد تكون جنية ، او انها عروس البحر التي فتنتني ليلة على الساحل ، تبدت في وهم الخيال كرة اخرى ، او انها امرأة خرجت من احد التماثيل ، ولن تلبث ان تختفي اذا ما رأتني .

يا رب ما كان أحفل تلك اللحظات بالخوف، والتوتر، والاثارة ، وما كان اشقاني ، واسعدني ، واكثر الانفعالات المتضاربة في نفسي ، وما أشد الخطر ، واروعه ، حين يكون المرء على حافته ، على تخم الحياة او الموت ، بين الرجاء واليأس ، يرتعد من رأسه الى قدميه بانتظار الهنيهة الحاسمة ، الهنيهة التي يتقرر فيها مصيره ، فاما صعود الى اعلى ، او هبوط الى اسفل ، اما ان يفارق الوجود او يعانقه ، اما ان يفوز باللذة والمغنم ، او يبوء بالفشل، ويجلله العار ، ويمضغ المرارة ندما او حقدا على تصرفه الشائن .

اطالت تمشيط شعرها . كانت تنظر اليه باعجاب في المرآة . تتعشقه وتشعر ، ربما ، بلذة في تمسيده بكفيها ، من ههنا وهناك . وخشيت ان تكون نرجسية، وان تفعل باعضاء جسمها ما تفعله بشعرها . كنت اريد ان تلتفت الي وتراني . لاقطع شكا بقين ، واعرف الام سيصير امري . وكان انصرافها ، وهي وحيدة ، الى ما تنصرف اليه المرأة في بيتها ، وامام مرآتها ، من تملي مفاتنها ، قد يجلب كارثة على رأسي ، اذ افقد قدرتي على الاحتمال ، فاتصرف بجنون مدفوعا بشهوة طائشة.

غير ان المرأة لم تفعل . حمدت الله انها لم تفعل. وضعت المشط على الطاولة واستدارت فرأتني ، حدث ذلك فجأة ، كومض البرق . التقت عينانا ، وصعقنا كلانا ، ولم يخرج صوت من الفمين ، عقدت المفاجأة لسانها . وقبل ان تستعيد روعها ، وتقوم بأية حركة، او يصدر عنها اي صوت ، كنت أتقدم نحوها شاهرا السكين . كان الرعب قد استولى عليها تماما . كانت هيئتي مرعبة ولا شك . مخيف الانسان في حالتي الجريمة والجنون ، وكنت انا في الحالتين . كنت مجنونا على وشك ان اصبح مجرما . وفي جو المخزن الموحش، البارد ، وبين عيون التماثيل الجاحظة ، والافواه المكشرة، والاشكال الخرافية لوجوه البشر والحيوانات ، كانت الجريمة لا تعدو ان تكون جزءا من الديكور ، وكان القدر المتربص واجدا فرصته الذهبية في دفع مصيري الى حافة التردي.

تحركت بغتة . أرادت الهرب حتما . انقضضت عليها ، وضعت يدي على فمها لاكتم صوتها ، واحتويتها بين ذراعي . قاومت . مقاومتها اثارتني . كانت جميلة، شاحبة ، ذات عينين سوداوين ، مشقوقتين الى اعلى ، وقد اتسعتا . واستطاعتا بفعل الكحل والرعب . وبخلاف نساء ذلك البلد ، كان لها صدر صغير ، وعنق ابيض ، واسنان كاللؤلؤ ، منظومة داخل شفتيها السمراوين . وكانت حارة ، رخصة الملمس بين يدي ، ولم اعد ، في ذلك الوقت العاصف ، افرق بين خلاصي ونزوتي . ضعت تماما . صار الموت معها ، الى جانبها فوق صدرها ، شهيا جدا . بل انني لم اعد افكر بالموت ، ولا بالسجون، ولا العار ، ولا تحذيرات القبطان . تملكتني حالة من فقدان الشعور بالزمان والمكان ، وعلى لساني تشهت رغبة قاتلة الى الرضاب او الدم . وسمعت ، وهي مضغوطة بين ذراعي ، تمتمة بحاء ، واحسست بانياب حادة في

كتفي ، تغرز وتغرز الى العظم ، رافقها ألم شديد،موجع، لا يطاق ، فعضضت على شفتي كيلا اصرخ ، وضغطت على كتفيها بكل قوتي ، فاذا بها تنطوي نصفين ، وتركع ، وترتخي أنيابها عن كتفي ، وتكاد تهوي الى الارض ، ثم لا تلبث ان تفيق ، وتقاوم بشراسة ، بضراوة لبوة ، ومن جديد تتلاشى ، وتتمدد على الارض ، وتروح في شهيق وانين خافت .

لا ادري كم مضى من الوقت . احسب انه كان وقتا قصيرا ، وان المكان دار بنا ، ودار حولنا ، وان التماثيل البوذية شهقت من استثارة وقعت ، وان الموجودات والصور تحركت في اماكنها ، وذهبت الاشياء وعادت من اثر زلزال صغير ، واننا تلاشينا معا ، وحين عدنا من تلك الغيبوبة الرائعة ، كنا اقرب الى بعضنا ، وقد زال الحقد من العيون ، وتملصت مني وقفزت الى الداخل، ثم استدارت الي متوفزة كنمر جريح ، وانا اركع امامها، مطبق اليدين على عادة السكان في تلك البلاد ، اطلب صفحها ومغفرتها .

كان بامكانها ان تصرخ ولم تفعل . وكانت السكين ملقاة على الارض فلم تلتقطها . اكتفت بان دفعتها بقدمها الى الداخل ، وامام هذه البوادر عاودني الاطمئنان. استشعرت راحة بعد عذاب ، وشعت من عيوني نظرات الضراعة ، ففهمت هي كامرأة ان كل شيء قد انتهى ، ولا فائدة من احداث فضيحة ، فاشارت الى الخارج ، وقالت كلمات لم افهمها .

نهضت عن الارض . نفضت ثيابي . رأيتها تتناول سترة فتلبسها ، والتقت عيوننا في نظرة مصالحة، ومرة اخرى ، وانا واقف ، ضممت كفي امام صدري، علامة الشكر والسلام ، واشرنا الى ما حولنا من تحف ، واخرجت نقودا من جيبي .

ـ لايوجد ، لا يوجد ، قالت بلغتها .

ـ يوجد ، يوجد ، قلت واناأشير الى كل تلك التحف .

لطمت على خديها ، بكفيها الحلوتين ، فابصرت خاتم الزواج في يدها . كانت تريد ان تعبر عن خوفها لوجودي في المخزن وهو مغلق ، وتحذرني من مغبة البقاء، لكنني كنت اريد شراء بعض الاشياء ، لتكون شاهدا على انني دخلت المخزن لابتاعها ، وكان وثوق قد تولاني انها تحرص علي ، ولن تأتي بأي عمل يضرني ، وانها خشبة انقاذي من بحر الخطر الذي يموج من حولي .

عدت اشير الى التحف من حولي ، واخرج النقود من جيبي ، فتهيأ لي انها ابتسمت لغبائي او جسارتي. قالت شيئا بلغتها لم افهمه . اشرت بيدي حول عنقي ، ففهمت انني اريد طوقا ، وفكرت قليلا ، ثم اومأت الي أن انتظر .

التقطت السكين من الارض ، وتناولت سلما من ورائها ، حملته واسندته الى جدار ، وصعدت بحركة رشيقة ، الى آخر درجات السلم ، وشرعت تحز خشب الحائط بالسكين ، فيما يشبه المربع ، حتى بانت الطاقة، ففتحتها واندست فيها ، ثم غابت عن ناظري وانا اتابعها مدهوشا .

ذهبت فتفقدت الباب . وجدته مغلقا تماما . قلت في نفسي أن احدا لن يشك في انه غير مقفل اذا لم يجرب فتحه . مشطت شعري ، مسدته ، فركت وجهي، تحريت ثيابي لاتأكد من ان كل شيء على ما يرام ، وان هيئتي لا تبعث على الريبة . هدأت قليلا . نظرت في ساعتي فألفيتها الثانية عشرة . بعد ساعتين يحين موعد نوبتي على الباخرة . صرت على شيء من امل في النجاة، وفي العودة الى الباخرة ، وقررت ان آتي كل يوم الى هذا المخزن ، وان امكث فيه كل وقت الفراغ ، لاجل التحف . ولاجل هذه المرأة التي لا اعرف اسمها بعد .

ومع كل هذه الثقة المستعادة ، كان شيء ما داخلي يؤرقني . لم افكر بما حدث . تركت كل ذلك الى الباخرة. قلت انني سأسترجعه لحظة لحظة ، وتفصيلا تفصيلا، حين أكون وراء الدفة ، او مستلقيا على فراشي المعلق في القمرة . وسيكون ذلك ممتعا ، لان الخطر الذي يتهددني قد انتفى ، وانني ، اذا ما نجوت ، اكون قد فزت بامرأة وتحف ، اكون قد فزت بما لا يحلم ان يفوز به احد من زملائي البحارة . انني على يقين تام ، ان احدا منهم لم يستطع ان يعثر على خمارة خارج النادي. ولا على امرأة في هذا المرفأ الا في الخيال ، وسيكون موضع دهشتهم ان اروي لهم كل ما جرى معي اليوم، غير انني لن افعل . سأكتم السر . عندي الان سببان لكتم السر : التحف والمرأة .

كنت احاذر اثارة اية نأمة . ولان وقع الخطى قد يسمع من الخارج ، فقد تجمدت في مكاني ، وعيناي معلقتان بالكوة المغلقة التي انسلت منها المرأة الى الداخل. كان السلم على الجدار ما يزال ، وخطر لي ان اتسلقه وألقي نظرة الى الداخل ، حيث غابت المرأة وتركتني . لا بد ان تكون هناك غرفة ، وفي هذه الغرفة اشياء مخبأة ، بدليل ان الجدار مدهون بالكلس ، ولا تستطيع النظرة ، مهما دققت ان تكتشف معالم الكوة قبل تحزيز الجدار كما فعلت المرأة .. لكن علام وجود غرفة سرية وراء هذا الجدار الخشبي ؟ ولماذا يخبئون الاشياء هناك ما دام المحل هو ملك الدولة ، ككل المحلات في هذا البلد ؟ وهل يؤدي هذا المدخل السري الى الخارج ؟ وهل ذهبت المرأة، عبر الكوة ، الى بناية اخرى ، او الى مخزن آخر ؟ أتكون غادرة ؟ هل ذهبت لتتصل بأحد ؟ لو أرادت ذلك لاتصلت من هنا ، بواسطة الهاتف ، ام قدرت

انني سأمنعها ؟ او فكرت انني قطعت سلك الهاتف عند الدخول ؟

انهمرت علي الاسئلة كالمطر . وكلما طال انتظاري تكاثرت الاسئلة وتنوعت . كنت لا افهم لماذا هذا المخبأ السري ، ولماذا هناك بضاعة مخبوءة ؟ أتعود لصاحب المخزن ؟ ولكن من هو صاحب المخزن ؟ وكيف يستطيع الوصول الى كنزه هذا اذا لم يكن يعمل هنا ؟ ومن هي هذه المرأة ؟ زوجته ؟ شقيقته ؟ ابنته ؟ المخازن مؤممة في هذا البلد . هذا ما عرفته في زياراتي ، وما اكده القبطان ، وكل الذين يعملون في المخازن هم موظفون، فهل الموظف هنا هو الصاحب السابق للمخزن ؟

وجدت الفكرة معقولة . كان يملك هذا المخزن للانتيكات قبل التأميم ، وقد استطاع ، قبل الوصول اليه ، ان يقيم غرفة سرية وراء الجدار ، ويخفي فيها كنوزه ، على امل ان يأتي يوم ويسقط النظام القائم ، وتعود الملكية الشخصية ، وعندئذ يعود صاحبا للمخزن، ويخرج كنوزه من مخابئها .

تساءلت : عشرون عاما وهو يحتفظ بهذا السر ؟ يبدو انه خاف أن يموت وتضيع الثورة ، فاطلع زوجته او ابنته على سره . يا للنفس الطويل ! يا للامل الذي لا ينقطع ! انهم يحلمون بالعودة الى الماضي ، ترى كيف يخططون للعودة ؟ باية وسائل ؟ وهل وحده فعل هذا أم هناك امثاله كثيرون ؟ لا بد ان يكون هناك ملاكون كثيرون غيروا جلودهم ولم يغيروا قلوبهم . اني اكتشف سرا خطيرا اذن ، فما علي ان افعل ؟

قلت في نفسي : « لن افعل شيئا» صممت على الا أفعل شيئا . ماذا يهمني من هذا كله ؟ انني لست معنيا بأمر هذه السلطة ، ولا بأمر هؤلاء الملاكين . ما اريده هو النجاة . ما ان تعود المرأة حتى ابتاع منها بعض الاشياء، ثم اتدبر طريقة للخروج من المخزن بمساعدتها . انا واثق الان انها لن تشي بي . اذا كانت الامور كما قدرت فانها هي التي ينبغي ان تخاف مني . تخاف ان اتكلم . ولكنني أجهل لغة البلد ، ثم من مصلحتي الا اورط نفسي . انها مطمئنة هي الاخرى . تستطيع ، عند بوحي بالسر ، ان تقول انني اقتحمت المخزن ، وهددتها بالسكين ، وضاجعتها بالقوة . ان حكما بالاعدام ينتظرني في هذه الحال . فاذا كان السفير السويدي سجن ثلاثة عشر عاما لانه تحرش بامرأة ، فكيف انا وقد فعلت كل هذا ؟ رباه ! لتعد فقط ولا اريد شيئا ، لا اريد تحفا ولا كنوزا ، الكنز الاعظم هو سلامتي ، خلاصي من هذه الورطة ، انتهاء هذا الانتظار المعذب الذي طال وطال ، على غير ما كنت ارجو .

اخيرا سمعت حركة في المخزن . كانت الحركة صادرة عن الاعماق ، فيما يلي المكان الذي رأيت فيه المرأة تمشط شعرها . ارتعدت للوهلة الاولى. خفت ان يكون هناك انسان ما ، وتمالكت جأشي فزعمت لنفسي انها قطة او جرذ يمر بين الاخشاب والخزفيات والاواني المركومة . غدا قلقي متورما الان . طفح الكيل ولم اعد اصبر على عودة المرأة ، فكرت ان اجازف بفتح الباب والهرب ، لكنني استنبت املا جديدا في عودتها قريبا. لقد انتظرت كل هذا الوقت ، ومن المحال ان تدعني هكذا ، فاما ان تعود ، او يكون المخزن محاصرا اذا وشت بي ، وفي الحالين أحسن صنعا اذا أنا انتظرت قليلا ايضا ، قليلا جدا ، بحيث اتخذ قراري بعد خمس دقائق .

ومرت الدقائق الخمس ، وبعدها دقائق عشر ، وفي النهاية فتحت الكوة واطلت المرأة حاملة صندوقا. ومن داخل المخزن جاء رجل عجوز ، بلحية طويلة وشعر ابيض ، يرمش بعينيه ويحدق في كأنه قصير النظر .

ادركت الان ان العجوز هو مصدر الحركة . لقد كان هناك من غير شك ، لكنني لم استطع الجزم بوقت تواجده في المخزن ، وقدرت من حركاته وهو يقترب مني ، ان المرأة استدعته ، وانها تحاول اقناعه بان يبيعني بعض التحف التي في الصندوق .

كان العجوز يرفض فيما بدا لي من صوته واشارات يديه ، والمرأة تصر على موقفها، واخيرا اقتربا من الطاولة، فوضعت المرأة الصندوق عليها ، واشارت الي ان اقترب ففعلت ، ودهشت لان الصندوق كان مليئا بالحلى والاحجار الكريمة .

حاولت ان اتفاهم معهما بما اعرف من كلمات انكليزية حفظتها على ظهر الباخرة ، لكن المرأة ابتسمت، وهزت رأسها نافية علمهما بهذه اللغة . لم يبق من سبيل سوى الاشارة ، فاخرجت نقودي كلها ووضعتها على الطاولة . ومن المؤسف ان ما أملكه لم يكن مبلغا كبيرا . ما كنت اتوقع ان تفتح السوق هذا اليوم . وكان هذا كل حسابي في الباخرة ، وكل ما في وسعي دفعه للرجل، فطلبت مني المرأة ان انتقي ، وشرعت ابحث عن الاشياء التي اريدها ، فانتقيت بعض العقود والخواتم والاحلاق والشكلات ، وكلها مرصع بالفيروز والمرجان واللؤلؤ، وباحجار اخرى لا اعرف اسمها . كنت اخرجها من الصندوق واضعها على الطاولة ، والرجل ينظر الي متابعا ، ثم تناول النقود وعدها ، وأومأ الي ان اتوقف، وأغلق الصندوق بحركة تفيد ان هذا ما استطيع شراءه بالنقود التي معي .

لم اجادل . كانت الاشياء ، في تقديري ، تساوي اضعاف قيمة نقودي . لقد كانت لقية ثمينة ، وكنت فرحا بحيث ابتسمت في وجه المرأة اكثر من مرة. اما هي فظلت هادئة ، غير مبالية ، كأنها لا تعرفني ، وما

كاد العجوز يدير ظهره ذاهبا الى الداخل لامر ما، حتى فتحت الصندوق وتناولت هذا الخاتم الذي في يدي . وألبستنيه ، وهي تنظر في وجهي نظرة معبرة ، نظرة تقول : « هذا تذكار مني ! » .

اخرجت منديلي فوضعت الاشياء فيه ، وحين طلبت وصلا بهذه المشتريات ابتسمت وقالت : « لا » وارفقت ذلك بهزة من رأسها فهمت منها الا وصل ، وابتسمت بدوري وقلت : « لا بأس » ، ثم اتجهت الى الباب وهي امامي ، وبعد ان شقت الباب ، وتأكدت ان ليس ثمة من يراقب المخزن ، اومأت بيدها فخرجت .

كان المنديل في جيبي ، وكانت يداي فارغتين ، وقد سرت ببطء ، سيرا عاديا ، حتى انعطفت في الشارع المؤدي الى « النادي البحري » وعندئذ اسرعت ، لا اصدق انني نجوت ، وان تلك المرأة الفاتنة كانت لي ، وان منديلا فيه هذا الكنز الصغير في جيبي ، والاهم انني تجنبت القتل الذي ارفضه بكل قواي .

دخلت النادي باحتراز . شربت زجاجة بيرة ، وتبادلت الحديث مع بعض البحارة ، وانصرفت مسرعا الى المرفأ ، دون ان التفت مرة واحدة الى الوراء . كانت الساعة توشك ان تدق الثانية ، وقد حان موعد نوبتي على الباخرة ، فصعدت السلم قفزا ، وانحدرت الى قمرتي التي كانت فارغة من الزملاء ، مما اتاح لي أن أضع المنديل في صندوقي ، واسرع لاستلام النوبة .

كانت السعادة التي غمرتني وانا على الباخرة غير عادية . أحسست انني ولدت من جديد ، وان عمرا اضافيا قد كتب لي ، وان الدنيا جميلة ، رائعة من حولي، والبحر ، في المدى البعيد ، خارج المرفأ ، يبتسم لي، وان حظا طيبا قد واتاني هذا اليوم . كنت قادرا ، وانا اقوم بالحراسة ، ان أغمض جفني واسترجع ، في ومضات خاطفة كالبرق ، بعض الرؤى ، بعض التفاصيل، بعض قسمات المرأة ، وشعرت بامتنان عميق للبحر ، وللوجود ، وللمرفأ الذي هيأ لي هذه المغامرة الرائعة .

حين انتهت نوبتي ذهبت الى « بار » الباخرة ، كنت جائعا وبي ظمأ شديد الى الشرب، أحببت ان اسكر. ان افعل شيئا خارقا يعبر عن فرحتي . لكن المنديل الذي كان في الصندوق استأثر باهتمامي ، فكرعت زجاجة بيرة ، وقضمت « سندويشة » كيفما اتفق ، وذهبت من فوري الى قمرتي ، وهناك فتحت الصندوق ، واخرجت المنديل باحتفال خاص ، وشرعت اتفحص كل ما فيه على مهل ، باعجاب ، بلذة ، بسعادة غامرة، غامرة، غامرة ...

في اليوم التالي استدنت بعض المال من زملائي، ومن الصباح انطلقت الى النادي ، ومنه الى السوق ، ومن بعيد رأيت ابواب المخزن مفتوحة . خفق قلبي بقوة . قلت في نفسي انني سأكون حرا في دخول المخزن، وفي البقاء فيه ما طاب لي . وسيكون لدي وقت طويل لأتملى وجه المرأة . في ضوء النهار الكامل ، وسأحاول أن انفاهم معها ، وان أعبر لها بأي شكل ، عن حبي ، وربما ، في الزيارات المقبلة . استطعت ان اقيم علاقة معها ، علاقة حميمة ، صادقة . لا أتوانى معها عن تهريبها اذا رغبت ، وعن الزواج بها اذا وافقت . لقد فتنتني تلك المرأة ، وكان الخاتم في يدي شاهدا على فتنتي . فانا أنظر فيه واعيد النظر ، وباصابعي أتلمسه لاتأكد انني اعيش حقيقة وليس حلما .

دخلت المخزن بصورة طبيعية . كان هناك بعض الاجانب من السياح ، تظاهرت بانني أتفرج على التحف، تقدمت رويدا رويدا الى امام ، وحين صرت امام باب الفاصل نظرت الى الداخل الى المكان الذي كانت فيه الطاولة . والمرأة . والمرآة ، فلم أجد شيئا . تغير ترتيب الاغراض . لم اجد العجوز الذي رأيته امس . رفعت رأسي الى الجدار لم اقع على علائم الكوة فيه . لقد عاد الجدار الخشبي كما كان . بدا مطليا بالكلس بصورة لا تدع شكا بان فيه ثغرة . تولتني حيرة شديدة، اصبت بخيبة امل شديدة ، ولولا الخاتم في يدي ، لظننت ان كل ما وقع لي كان خيالا ..

مكثت طويلا في المخزن ، على امل أن تظهر المرأة. أن أرى العجوز ، غير ان انتظاري ظل سدى . ادركت عندئذ ان المعجزة لن تتكرر ، وكانت التحف قد فقدت قيمتها وبريقها في عيني ، فلم اشتر شيئا ، وغادرت المخزن حزينا خائبا .. وهذه هي قصة الخاتم » .

سرت همهمة بين الحاضرين ..

كان القمر يتوسط السماء الان ، والبحر يواصل تدحرجه على الرمل ، وهديره الحلو يعطي ايقاعا مغريا بالسهر ، والدنيا صيف ، والسماء صافية ، مضاءة بألق فضي اليف .

وقال رجل :

ـ ما أغرب هذه القصة .. تكاد لا تصدق ..

وقال آخر :

ـ غرائب البحر كثيرة ..

ولاحظ سعيد ان بعض السيدات انسحبن ، واستمعن الى بقية القصة من داخل خيمة قريبة ، فندم لانه أفاض في تفصيل معركته مع المرأة .. وقال :

ـ اعذروني .. فقد أسأت الادب بصراحتي الكاملة ..

وقال الرجل الجلف الذي جاء اول الليل الى خيمته :

ـ كان عليك ان تنتبه لوجود ...

ولم يكمل الجملة ..

وقال الرجل الاخر، المثقف :
ـ لا يهم .. في الكتب تروى الاشياء بتفصيل اكبر، وكلنا نقرأها ..

وساد الصمت .. فلم يقطعه الا سعيد وهو ينهض قائلا :
ـ تصبحون على خير ..

فقال رجل موجها الكلام اليه :
ـ في أي ساعة ننطلق غدا الى ارواد ..؟
ـ في الساعة التي تشاءون ..
ـ هل تناسبك الساعة العاشرة ؟
ـ الرأي رأيكم .. انا معكم منذ الصباح ..
قالها ومضى ...

وما كاد يدخل خيمته حتى لحق به الرجل المثقف!
ـ زوجتي تسألك : هل تبيع الخاتم ؟

فكر سعيد . كان الرجل عزيزا عليه ، وكان الخاتم عزيزا عليه ، وكان منذورا لعروس البحر ، ومن المحال ان يبيعه ، لذلك تبدى الحرج في وجهه ، وقال على استيحاء :
ـ لتعذرني السيدة .. لا استطيع التفريط بهذا التذكار ..

وقال الرجل :
ـ مفهوم .. شكرا ..

وعاد كما اتى ..

واستلقى سعيد على أرض الخيمة .. كان منفعلا بذكريات قصته ، وينتظر ان ينام الجميع ليبدأ رحلته. لقد قرر ان يهجر هذا المكان الذي شهد سباقه اليوم، وحين يطلع الصبح يكون قد قطع مسافة كبيرة ..

بعد قليل اسدلت الستائر على ابواب الخيام ، واطفأت انوار الكازينو ، وسادت الظلمة وعم السكون، ولم يبق الا البحر منشدا على هواه .. وعندئذ غادر سعيد خيمته ، غادرها متجها الى الشمال ، على طول الشاطىء الذي كان مقفرا في ذلك الوقت ..

الكاتب الفلسطيني

تصدر مرة كل ثلاثة اشهر
عن
الاتحاد العام للكتاب والصحفيين الفلسطينيين

رئيس التحرير
ناجي علوش

من مواد العدد ١١

الحركة الوطنية الفلسطينية (١٩٤٨ـ١٩٧٠)
عبد القادر ياسين/أحمد صادق سعد

دائرة الرفض « شعر »
ابن الشاطىء

منفيون « شعر »
عمر رشراش

غزو بلا سلاح
ترجمة عن عبدالرحمن الخميسي

الى اللقاء في منفى آخر « شعر »
كاظم السماوي

NAKED CHILDREN OF PALESTINE
Abdul Jawad Saleh